(١٩) ثورستاين فيبلين : نظرية طبقة العاطلين بالوراثة

بقلم : ستاو بيرسونز

كان كتاب « نظرية طبقة العاطلين بالوراثة – دراسة اقتصادية للمؤسسات » الذى نشر فى عام ١٨٩٩ أول كتاب ألفه مدرس غامض للاقتصاد فى جامعة شيكاغو . لم يكن من ذلك النوع من الكتب الذى يؤلف لكسب المكانة الأكاديمية أو الشعور بالاستقرار لمؤلفة الذى لم يحقق فى الواقع هذه الأهداف التقليدية على الإطلاق ، والذى ربما لم يقم لها وزناً . لكن الكتاب مع ذلك يعد تحفة فى نوعه ، وبصفته بعيداً عن القمة المنعزلة فى المجال الفكرى – فإننا نراه فى الحال كجزء من هجوم شامل متصاعد للنقد الاجتماعى الذى سيغير مناهج الدراسة الأمريكية فى القرن العشرين تغييراً جذرياً .

وفى تاريخ الفكر الاقتصادى الأمريكى يشغل ثورستاين فيبلين مكانته بين العدد الهائل من الاقتصاديين والنقاد الاجتماعيين الذين عملوا فى نهاية القرن التاسع عشر بجدية بالغة على هز الأسس التى نهضت عليها النظرية الاقتصادية الكلاسيكية الراسخة .

وقد أصر الاقتصاديون الذين ينتمون إلى المدرسة التاريخية على الدور الإيجابى للدولة فى تشكيل الأوضاع الاقتصادية على أساس من المصلحة العامة . وكانت المدرسة التى تساند قيام المؤسسات قد قدمت دراسات تجريبية للوظائف الفعلية التى تؤديها المؤسسات بدون أى اعتبار لهالة القداسة المحيطة بالنظرية الكلاسيكية : فقد ركز هنرى جورج الانتباه العام بقوة وبفاعلية

على الوجود المستمر المتعارض للفقر وسط المستوى الصاعد للمعيشة . والاشتراكيون سواء كانوا معتنقين لليوتوبيا أو للماركسية كان لهم صدى واسع وسط مجموعات المهاجرين والمصلحين الإنسانيين.وتأثر فيبلين بكل هذه التيارات . وكانت قصة إدوارد بيلامى الرومانسية اليوتوبية « النظر إلى الخلف » التى نشرت قبل ذلك بعقد من الزمن قد أثرت فيه إلى حد بعيد ، وحولت اهتمامه فى الواقع من الفلسفة إلى التنظير الاجتماعى . وكان لمفهومه الخاص لتطور المؤسسات الاجتماعية أوجه شبه عدة بالماركسية لدرجة أنه لمدة سنوات كثيرة تالية تجادل الدارسون حول احتمال أنه من غير المناسب اعتباره ماركسياً !

كان فيبلين منهمكاً أيضاً فى التحول الاجتماعى الذى اجتاح المجتمع الأكاديمى فى عصره : فطوال القرن التاسع عشر كان أساتذة الكليات والجامعات يعتبرونه جزءاً لا يتجزأ من الصفوة الراقية التى حافظت على الثقافة الأرستقراطية التقليدية . وكانت الطبقة الراقية قد مهدت الطريق بأسلوب مناسب مقبول من الجميع لتحالف الدين مع التجارة ، وهو التحالف الذى ساند التعليم العالى فى أمريكا ، لكن كانت هناك طائفة من الدارسين ، الذين يعد فيبلين واحداً منهم قد ولدت فى العقد ١٨٥٤ – ١٨٦٤ ؛ لتتحدى التقاليد الراسخة السائدة وتؤدى دوراً هاماً فى تحطيمها ! فكان منهم ريتشارد ت . إيلى وجون وكومونز وفيبلين فى الاقتصاد ، وجون ديوى فى التعليم والفلسفة ، وإدوارد ا. روس فى الاجتماع ، وج . آلن سميث فى العلوم السياسية ، وكلهم شخصيات أثارت المعارك الفكرية ، ورفضت اتخاذ السمت التقليدى للانعزال الأكاديمى .

وبدأت عملية إعادة صياغة الجامعات لكى تقوم بدورها فى القرن العشرين كمؤسسات أو مرافق للخدمات . وقد شعر الناس بتأثير هؤلاء المصلحين خارج المجتمع الأكاديمى تماماً كما كان بداخله . فتعاملوا والصحفيون وخبراء الإعلام . وغالباً ما نشروا كتاباتهم فى المجلات الشعبية . وكان مزاج فيبلين الساخر المرير قد منعه من المشاركة فى الكثير من هذه الأنشطة ، لكن هذا لم يثبط من عزيمة مجموعة تلاميذه الصغيرة المخلصة ، والذين كان معظمهم من خارج المجتمع الأكاديمى – من التجمع حول أستاذهم للتخفيف من صرامة العزلة الاجتماعية المتزايدة .

ولابد أن « نظرية طبقة العاطلين بالوراثة » كانت كتاباً حرجاً بالنسبة للقراء الذين وقع فى أيديهم ؛ لأنه لم يكن يشبه الأشكال المعتادة من التحليل الاقتصادى . وكان هدف فيبلين النهائى

إبراز أن السلوك الاقتصادى لم يكن خاضعاً للاعتبارات الشخصية المحسوبة بدقة .

وعلى الرغم من أن الناس يملكون غرائز « اقتصادية » ، وخاصة غريزة الصنعة ، فإنهم يملكون أيضاً سلسلة من الغرائز الأنانية غير الاجتماعية ! وقيل : إن السلوك الاقتصادى نتيجة لتفاعل هذه الغرائز مع الحتميات الناتجة عن وجود المؤسسات . وأصبح سلوك طبقة العاطلين بالوراثة نوعاً من السلوك الراسخ المعترف به ، والذى تسانده الهالات المقدسة المحيطة بالتقاليد بهدف إشباع غرائز السيادة والتفوق .

وبالنظر إلى المفهوم الداروينى الشائع فى تلك الفترة للصراع من أجل البقاء – أخذ فيبلين على عاتقه تتبع التطور الاجتماعى لطبقة العاطلين بالوراثة إلى أصولها فى العصور الثقافية المبكرة . وكانت نتيجة هذا عملاً ينتمى إلى مجال الدراسات الأنثروبولوجية أكثر من انتمائه إلى ميدان العلوم الاقتصادية .

وينهض مضمون الكتاب الرئيس على الفكرة التى تنادى بأن طبقة العاطلين بالوراثة كانت نتاجاً للمرحلة الهمجية من الثقافة الإنسانية . وعندما زادت الإنتاجية إلى الدرجة التى أوجدت فائضاً فإن المرحلة المبكرة المسالمة من البربرية المتوحشة تركت مكانها للبربرية التى تحض على السرقة بالإكراه بهيكلها المميز القائم على الملكية الخاصة . وكان امتلاك النساء أول صورة من صور الملكية ، وكانت الفروق البربرية الأساس بين الفراغ والعمل ، وبين الاستغلال والكدح ، وبين الشرف والضعة – ترجع كلها إلى خضوع النساء للرجال ! وبحكم أن « نظرية طبقة العاطلين بالوراثة » صدرت بعد قرن من القلاقل المؤيدة لحقوق المرأة – فقد كانت بمثابة نص جاهز يتناول أصول استغلال النساء !

وكانت طبقة العاطلين بالوراثة هى الطبقة التى تملك والتى تحكم أيضا وبصفته اقتصاديًّا كان فيبلين مهتمًّا بمهامها فى مجالى الحكومة والإدارة أكثر من الأساليب التى تتبعها فى ممارسة قوتها وسوطتها من خلال الاستهلاك المضيع بصورة واضحة لكل من الوقت والسلع .

وبصفته ناقداً كان هدفه تعرية ادعاءات الحق والاستقامة التى يتشبث بها الأغنياء وذلك بإظهارها بعيدة تماماً عن القيام بأية مهمة اقتصادية مفيدة ، وهو ما يتمشى مع ما يدعيه المدافعون عنهم ؛ فقد كان سلوكهم نموذجاً لتشتيت الطاقة وانعدام الجدوى .

وطبقة العاطلين بالوراثة بكل من يسير فى ركابها من خدم ونساء ودارسين وكهنة ومقامرين ورياضيين – تحوّل قدراً ذا دلالة من الإنتاجية فى المجتمع إلى أغراض مضيعة لها ! وكان كتاب

فيبلين دراسة فى علم الأمراض الاجتماعية ، وأظهر كيف أن سلوك طبقة العاطلين بالوراثة أضعف من التعبير البناء عن غريزة حب العمل ؟ وهكذا خنق التقدم المرتقب فى مجالات الإنتاج الذى تدعمه هذه الغريزة الصحية إذا لم يقف فى طريقها ما يعوقها .

ولمدة تزيد عن القرنين استمر علماء الأخلاق الأمريكيون فى التبشير بقدسية العمل وكرامته ، وقد وضع فيبلين نفسه فى خدمة هذه التقاليد عندما رسخ العمل فى الطبيعة البشرية فى هيئة غريزة حب العمل.وإذا كان تاريخ البشرية قد شكل تتابعاً تقدمياً -- ويؤمن فيبلين أنه قام بهذه المهمة بأسلوب يتميز بالكفاية – فقد كان ذلك نتيجة للتعبير البناء عن هذه الغريزة فى مجال التعاون الاجتماعى والمستوى المتصاعد للمعيشة . أما داروين ووليم جيمس وآخرون فقد ابتكروا نظريات الغريزة المتمشية مع الروح التى سادت التسعينيات من القرن التاسع عشر ، فى حين أن فيبلين أقام نظريته فى التحول الاجتماعى على التفاعل بين الغرائز والعادات التى رسخها المجتمع .

وفى عمل له ظهر بعد ذلك طور بأسلوب منهجى أفضل مفهوم الغريزة الذى ذكر بطريقة عرضية فى « طبقة العاطلين بالوراثة » وفى الواقع فإن كل المفاهيم التى سادت أعماله كلها قد بدت إرهاصاتها الأولى فى كتابه الأول .

وعلى الرغم من أن فيبلين استمد مفهومه الأنثروبولوجى المتطور من السير إدوارد تيلور ولويس هـ . مورجان ووليم ج . سمر – فإنه ربط الماضى الأنثروبولوجى بالحاضر وهو الإنجاز الذى لم يحققه سمر نفسه . وكان العلماء الأنثروبولوجيون الأوائل قد ربطوا بين المرحلة الثقافية من الحضارة واختراع الكتابة ، وبهذا فصلوا الإنسان المتحضر الحديث عن ماضيه البدائى ببضعة آلاف من السنين . وشاركوا قراءهم فى الافتراضات الراسخة التى تؤكد الانتصار الآمن للحضارة على البدائية . ودرس كل منهم التطور الاجتماعى كما لو كان من خلال حاجز زجاجى فى المتحف ، لكن فيبلين وجد النمو والتطور الكامل للمجتمع الهمجى لطبقة العاطلين بالوراثة فى أوربا الإقطاعية . وهكذا جاء بالهمجية إلى أعتاب القارئ نفسه إذا جاز لنا هذا القول وكانت طبقة العاطلين بالوراثة فى العصر الحديث إحياء همجياً فى ذاتها !

وهناك فقرات كثيرة فى الكتاب يصعب فيها أن نعرف : هل فيبلين يصف استخدامات ماضية أو معاصرة ؟ ونستطيع أن نقرأ عن الممارسة المعتادة التى نعلم فيها فقط عن طريق الملاحظة العرضية أنها مرتبطة تماماً بالمرحلة السابقة للهمجية الشبيهة بالسلمية . وبسبب الحافز

الذى يدفع الطبقات الدنيا إلى منافسة طبقة العاطلين بالوراثة وتحديها – فقد تفاعلت القوى الجامحة لكى تمنح الهمجية استمراراً !

ولقد ضاعف فيبلين من مؤثراته الدرامية بتوظيفه المتعمد للتناقض بين الأسلوب الرزين الهادئ المحترف والتردد القلق المبالغ فيه فى صيغة النمو والتطور الاجتماعى . وكانت المرحلة المبكرة من الوحشية المسالمة بمثابة عصر بناء إلى حد كبير ترسخت فيه أكثر النظم والعادات ضرورة ، لكن ذلك العصر تميز بأنه «النموذج الأول للكائن الشبيه بالإنسان» ، وهو مرحلة ثقافية دمغها فيبلين بأنها « من المحتمل أن تكون دون الإنسانية » . وعلى النقيض الآخر أذعنت المرحلة الأخيرة من همجية الاغتصاب والإكراه لروح تميل إلى الصراع والتقاتل بكل ما يحمله من عدوانية طاغية واستسلام مرعب . وكان إحياء هذه الاتجاهات فى العصر الآخر لطبقة العاطلين بالوراثة قد اختصر إلى حد كبير دورة التطور الاجتماعى واقترب بالإنسان المعاصر المتحضر كثيراً من أجداده الأشباه بالقرود وفى عهد الملك إدوارد الذى تميز بالاستقرار والرتابة لابد أن مثل هذه الأفكار كانت أكثر إثارة للصدمة منها لأى عصر مظلم .

ويأتى الكتاب إلى نهايته عند ملاحظة متفائلة بحذر : فقد أعلن فيبلين أنه يرى فى الطبقة العاملة عودة العادات الصناعية المسالمة والهادفة ، وهى العادات التى يمكن أن تؤدى إلى اندثار مفهوم طبقة العاطلين بالوراثة بكل طفيليتها وقدرتها على الاغتصاب والإكراه . وسيكون هذا تطوراً تلقائياً للنظام الصناعى الناتج عن استعادة الخصائص الوحشية المسالمة التى تميزت بها المرحلة المبكرة من التطور الاجتماعى . ولكن للحظات قصيرة فقط كان فيبلين الساخر بمرارة يترك لخياله العنان لكى يخوض فى مثل هذه الشطحات ! ومع ذلك فإن اللمحات القليلة التى سمح للقارئ أن يراها أظهرت أن تحت هذا الغطاء الخارجى التحليلى غير المتعاطف كان إيمان فيبلين كامناً فى رؤيا إدوارد بيلامى اليوتوبية للمجتمع الصناعى التعاونى .

وبعيداً عن مجرد الممارسة الأكاديمية فى الاقتصاد المنهجى فإن «نظرية طبقة العاطلين بالوراثة» كانت دراسة مركزة ذات أثر عميق على العصور التالية.كانت اهتماماتها الأساس : العمل والفراغ والقوة والكرامة والنزول عن الطبقة الاجتماعية وامتيازاتها ، وهى الاتجاهات التى أصبح الأمريكيون ينشغلون بها الآن أكثر من أى وقت مضى . وربما كان الفراغ مجرد أثر جانبى للقوة ، لكن الفراغ فى التسعينيات من القرن التاسع عشر كان يقضى بأسلوب مكشوف فى التكالب على المظاهر التى لم تكن معروفة حينئذ للأمريكيين . وأصبح من السهل التعرف

على ملوك المال والصناعة وتأكدت شهرتهم على المستوى القومى .

وقد قام المهندسون المعماريون بقيادة ريتشارد موريس هنت وهنرى هوبسون ريتشاردسون ببناء المنازل الضخمة الفاخرة لهم حيث أقام خدمهم ومن يعتمدون عليهم فى معيشتهم ليشاركوا فى الاستهلاك العملى فى مقابل تمجيد قوة أسيادهم !

وكان النمو السريع للمؤسسات المالية والشركات المتحدة التى أذعنت فيها نظم التصنيع والنقل لسيطرة الممولين قد أنذر بتركيز القوة ، وكان مفهوم فيبلين للصراع الأساس بين الإنتاج الصناعى للاستهلاك والعمل الاستثمارى للربح ذا دلالة مباشرة بالنسبة لهذا الموقف . ولابد أن ملاحظاته العرضية المقصودة على الخصائص العامة التى يشترك فيها رجال الأعمال والعاطلون بالوراثة قد أشاعت السرور فى نفوس كل القراء الذين يشاركون فى الرفض العام للأغنياء .

ولم يعد الجيل الجديد من الدارسين الذين كان فيبلين واحداً منهم يشعر بالتحفظات والقيود التى فرضتها تقاليد الطبقة الراقية على القدرات النقدية : فحتى قبل تخرجه فى كلية كارلتون رفض فيبلين بكل احتقار أسلوب الطبقة الأرستقراطية باعتباره النموذج الأول لاستعراض الامتيازات التى لا ينتج عنها سوى الضياع الواضح لكل ذى عينين !

وفى جامعة شيكاغو حيث درس الباحثون كتابه كان الرئيس وليم رينى هاربر يتأمل بدون ارتياح الفروق بين رجل أعمال عملاق يملك القوة كلها مثل جون د . روكفلر وقدرة قلقة لا تجد متنفساً لها وتكاد ترفض استكانة هاربر وعدم إقباله على خوض المخاطر : فى ظل مثل هذه الظروف شعر الدارسون ذوو الحساسية بأنهم نوع من التجميل الزخرفى ؛ كما وصفهم فيبلين فى فصله الختامى . وكمثل مهرج البلاط التقليدى الذى يضطر إلى تغليف نصيحته الحكيمة مستغلاً إحدى نزوات الملك – أطلق فيبلين قذيفته على روكفلر على هيئة دراسة أنثروبولوجية !

وعلى الرغم من أن تحليل فيبلين لطبقة العاطلين بالوراثة ودوافعها قد يبدو مقنعاً لأول وهلة فإنه ترك بصورة مؤكدة بعض القضايا التى لم تحسم ، فقد قال إن طبقة العاطلين بالوراثة « لم تكن بمعنى الكلمة جزءاً عضوياً من المجتمع الصناعى » ؛ فلم تتعرض لحالات الطوارئ التى تجتاح الحياة الصناعية والتى يمكن أن تضطرها إلى أقلمة نفسها للاحتياجات والظروف الملحة . وهذا يفسر أسلوبها المحافظ وخاصة أن أسلوبها هذا للاستمرار فى الحياة قد عفا عليه الزمن ؛ لأنه مازال يحمل بصمات ما قبل العصر الصناعى . ولكن على سبيل التحديد والتعريف فإن طبقة العاطلين بالوراثة هى الطبقة التى تملك وتدير ! .

هنا يكمن التناقض الأساس عند فيبلين فهو يطلب من قرائه الإيمان بأن المؤسسات الصناعية دخلت فى مواجهة مع الطبقة المالكة والمديرة التى قامت بدور سلبى طفيلى محض ، الطبقة التى تعتبر التجديد شيئاً غثاً مستهجناً ، والأسلوب المحافظ هو وجهة النظر (الوحيدة) الجديرة بالاحترام .

وماذا عن مصدر التجديد التكنولوجى والنمو الصناعى ؟ لا يخبرنا فيبلين بشىء على الإطلاق.! . ويبدو أنه اعتبر التطور الصناعى عملية غير شخصية لا يحتاج فيها الحافز والقرار إلى الخروج عن حدود الإشارة العابرة إلى غريزة حب العمل الغامضة . ويكفى أن نعرف أن طبقة العاطلين بالوراثة قد استغلت العملية الصناعية لمتعتها الخاصة . وكان انهماك فيبلين فى قضية الفراغ لدرجة أن صرف نظره عن قضية الإدارة قد نتج عنه تفريقه الشهير بين العمل والصناعة :

فالعمل بصفته المجال المناسب لطبقة العاطلين بالوراثة كان مسألة استغلال وتمويه وخداع .

ومن ناحية أخرى فإن الصناعة كانت الاهتمام الصحى المنصب على الإنتاج من أجل الفائدة والخدمة للآخرين . وما فعله فيبلين عزل جيل بأكمله من مؤرخى اتجاهات العمل ، وهم الذين حاولوا من ثم تكوين جبهة متحدة فيما بينهم .

وقد وضح انشغال فيبلين بهذه المشكلة من تعريفه غير الثابت لطبقة العاطلين بالوراثة الذى اعتمد فيه على ملابسات اللحظة الراهنة : فى بعض الأحيان نجدها الطبقة الحاكمة ، وفى أحيان أخرى نجدها الطبقة الطفيلية للعاطلين بالوراثة ، ولكى يسد الفجوة فقد شرح مفهومه للفراغ بأنه غالباً ما يأخذ صورة الاستهلاك المبذر الذى تمارسه الطبقة بأسلوب عملى من خلال المتمسحين بها الذين يتشرفون بهذه المهمة نيابة عن الشخصيات البارزة المرموقة التى لا يسمح لها وقتها بالقيام بها : فالزوجات يقمن بها عندما يكون الأزواج مشغولين فى مباشرة أعمالهم فى البيوت المالية ، أو على نطاق أوسع عندما يستمر الأساتذة فى جامعة شيكاغو فى مطاردتهم الملحة سعياً وراء مجد وشرف أعظم من روكفلر .

وعلى أية حال فإن الحقيقة التى تؤكد أن تطور المؤسسات الاقتصادية ينطلق إلى ما وراء الحد الذى تتمثل عنده أهمية سلوك طبقة العاطلين بالوراثة وأفكارها فى المجتمع الأمريكى – هذه الحقيقة أكدها فيبلين بهدف دفع قرائه إلى الإيمان بها .

وفى القرن العشرين تغيرت الدلالة الاجتماعية للفراغ بحكم أن الطبقة العاملة تمكنت من

الحصول على قسط كبير منه . فى حين أنه من المؤكد حقيقة أن هذا الفراغ المكتسب حديثاً غالباً ما تم استهلاكه المبذر بأسلوب خشن صريح من الممكن أنه كان يرضى فيبلين . ومع ذلك فإن مضمون نظريته مقيد بمحاولته إظهار أن الفراغ والعمل لا يزالان يمثلان غريزتين متعارضتين ! وبما أن الفراغ قد أصبح أكثر سهولة فى الحصول عليه – فإن قيمته الشرفية كدليل على الامتياز سرعان ما تلاشت.وقد أدرك فيبلين هذا أيضاً واقترح أنه كلما أصبحت المظاهر الفجة للفراغ أكثر شيوعا – فإنه لابد من تنمية الأشكال الوقور والمهذبة لقضاء هذا الفراغ ، وهى الأشكال التى عرفت عن الطبقة الراقية ، لكن هذه الطبقة عانت بالطبع من مصير التشتت والضمور الذى عانى منه الفراغ نفسه .

وعندما نلتفت إلى العلاقة بين الفراغ والقوة فإن معالجة فيبلين لها تبدو رهين زمنها بالقدر نفسه . فعندما كتب نظريته فى عام ١٨٩٩ كان بروز الأغنياء والأقوياء من الدلائل التى لا تقبل الشك على قدرتهم على الاستهلاك المبذر ، لذلك زادت كتابته من حدة وتركيز جيل بأكمله من النقد الاجتماعى ، لكن الضرائب التصاعدية والضغوط الاقتصادية التى نتجت عن الحرب والكساد أدت بدورها إلى المساواة الثورية فى الأوجه المعتادة للإنفاق . قد تكون الثروة والقوة مركزتين فى حيز ضيق كما كانتا دائماً ، لكن استعراضهما على هيئة استهلاك مبذر مضيع قد انجرف مع التبذير العام للمجتمع الذى يضع الاستهلاك العام لكل أفراده هدفاً له .

وربما بدت نظريات فيبلين فى الخصائص الوراثية والفوارق العرقية متمشية مع روح عصره ، لكنها منذ انتهاء القرن أصبحت ذات قيمة مشكوك فيها حتى الآن . وقد أعلن أن طبقة العاطلين بالوراثة تتكون أساساً من القادمين من شمالى أوربا وخاصة من إسكندنيفيا وهم (النورديون) الذين يتميزون بالرأس الطويل والبشرة الشقراء ، والذين ترسخت سيادتهم وسطوتهم فى أثناء مرحلة الاغتصاب البربرى وقيل : إن خصائص الطبقة العدوانية الطاغية هى التى حافظت عليها من خلال الوراثة . كما كانت الحال مع الاتجاه الشائع الذى يربط الإذعان لخدمة الآخرين بالطبقة المستعبدة التى يرى أنها تتكون بصفة عامة من أجناس الألب والبحر الأبيض المتوسط .

وعلى أية حال فإنه على الرغم من أن فيبلين قد جعل المرحلة الأخيرة من البربرية الشبيهة بالسلمية تمتد لتصل إلى العصور الحديثة فإنه كان من المستحيل بالنسبة له أن يثبت تاريخياً وجود الاستمرار السلالى لطبقة العاطلين بالوراثة الأمريكية ، وهو ما تتطلبه نظريته . لقد كان

مضطراً إلى الاعتراف بأن تكوين طبقة العاطلين بالوراثة الأمريكية حديث جداً وأن أعضاءها جاءوا بنسب ضخمة من قواعد الطبقة التى هى أقل من الوسطى . إذن ما العملية الميكانيكية التى اتبعتها لكى ترث الاتجاهات والأفكار المناسبة لطبقة العاطلين بالوراثة فى حين أن خصائصها الوراثية كانت تنتمى إلى طبقة الحرفيين المستعبدة ؟ كل ما استطاع فيبلين أن يقوله هو أن تحديها للخصائص الوراثية لطبقة العاطلين بالوراثة كان مسألة « تقليد لحماية نفسها » وهذا تفسير ضعيف غير مقنع . لقد سبق له أن ربط خصائص الاستيطان الأمريكى الاستعمارى بالأوربيين . هكذا استطاعوا أن يتجنبوا قسوة وصرامة النظام الصناعى القادم كنوع من العودة إلى البربرية أو الهمجية على نطاق القارة كلها . ومن ثم فقد ضاعف من حدة التناقض أن التكوين الاجتماعى لطبقة العاطلين بالوراثة الأمريكية أثبت أنه غير ثابت أو مستقر ولم تستطع نظرية فيبلين فى الوراثة العرقية أن تصمد فى مواجهة محك الحقائق . ويشك المرء فى أنها استطاعت تجنب النقد العنيف والهجوم القاسى إلى حد كبير ؛ لأنه قلب وضعها رأساً على عقب ، لكى يبرر إسقاطاته الكئيبة على الجنس النوردى الشمالى الذى هو نفسه نموذجٌ رائعٌ له ولو أنه خاطر بالتنبؤ باندثار الجنس الأسود على سبيل المثال لكان قد أوقع نفسه فى فضيحة تمتد أبعادها لتشمل القارة كلها !

وفى الواقع لم تكن « نظرية طبقة العاطلين بالوراثة » عملاً أكاديمياً بالدرجة الأولى ، بل كانت عملاً فنياً ؛ لم تكن دراسة موضوعية لكيان اجتماعى ، بل كانت تصويراً لنمط اجتماعى ، تصويراً يتغلغل إلى أعماق الشعور من خلال بنائه الذى أقيم بخبث وذكاء ! وكناقد مغترب لمجتمعه فإن فيبلين ألقى بكل ثقله على الوتر العاطفى فى تحليله لأساليب « ملوك الصناعة » السائدة ، الذين يتشرف كثير من الذين ينتمون إلى معسكرهم بقضاء أيامهم فى القيام بالمهام الشاقة الثقيلة لطبقة العاطلين بالوراثة . وكانت اعتراضات المؤلف التهكمية المتكررة على الحياد الأكاديمى قد أكدت هذه المؤثرات . إن أسلوب الإطناب المتأمل الذى يجمع بين التهكم والروح الملحمية ، والذى يسيطر على الكتاب كله – هذا الأسلوب يدعو القارئ إلى مشاركة المؤلف فى احتقاره المتواضع لمقدسات الطبقة المهذبة التى تتقنع بها الحقائق العارية للقوة والامتياز .

وعندما نجد أن المسار الكلى للتطور الاجتماعى يتأرجح داخل قوس واسعة بين « العبودية والخدمة » وبين « التضييع والتبذير » – فمن يستطيع التغاضى عن إدانة ممارسات طبقة العاطلين

بالوراثة التى تقدس التبذير حباً فى المظاهر وتحتقر العمل على أنه مجرد مجهود يقوم به الخدم والعبيد ؟

وعلى أية حال فإنه بصفة عامة كانت هذه الوسائل والأساليب قد استخدمت بتركيز شديد من أجل إحداث الأثر المستمر الذى قصده فيبلين . وفى حين أن كتابه حقق حداً من الشهرة ربما يكون مثار دهشته هو شخصياً عن حق فقد ظل رهين الفترة التى كتب فيها . فتذكِّرنا وجهته ذات الزخارف الغنية المنازل الضخمة الفخمة التى بنيت فى تلك الفترة لطبقة العاطلين بالوراثة فى أمريكا وقد عانى كلاهما من الزمن الذى عفا عليهما نتيجة للظروف الاجتماعية المتغيرة .